قصة مصرية

غرام الطفولة

بقلم الاستاذ محمد السيد

حكى بعضهم فقال : كنت أخترق شارع فؤاد الأول عند قنطرة بولاق ، وكنت مشغولا بزحمة الطريق ، فلما انتهيت إلى الجهة المقابلة ، سمعت كأن إنسانا يهتف باسمى ، فلم أحفل به وظللت ماشياً ، وبعد قليل وإذا بصبي يبيع الصحف قد تعلق بأطراف ثوبى ، ثم خاطبنى قائلا : كلم يابيك كلم ، (فى الأوتوبيل) الواقفة هناك بجوار القنطرة .

عدت لأرى هذا الذى يناديني ، وماذا يريد منى ؟ وفيما أحزر فى نفسى من عساه يكون هذا الذى يطلبنى فى هذا المكان ، وفى هذا الوقت من الليـل ، حتى أطلت من بالسيارة ، وقالت فى لهجة الأمر : اركب ... اركب حالا من فضلك ، فان جندى المرور لم تعجبه هذه الوقفة وقد ضايقنى كثيراً .

فى لحظة الدهشة وآنة الارتباك رحت أفتح باب السيارة لآخذ مكانى فيها كما يجلس الناس عادة ... ولشد ما أذهلنى أن كانت يد صاحبتها أسبق منى إلى قفل الباب ، وجذبتنى فى عنف إلى حيث تجلس هى فى مكان السائق ، ثم أردفت قائلة : متى تظل هكذا سقيم الذوق ؟

تعلم يا أخى معاملة الناس ... ماشاء الله ... حضرتك تركب السيارة وأنا سائقة عندك !!

طيب العفو ... وأستغفرك يا آنسة ، أنا أخطات فأرجوك المغفرة .

وأخذت مكانى بجوارها ، وتحرك (الموتور) واندفعت السيارة كأنهـا الريح تنهب الأرض نهباً .

قطعنا جزيرة الزمالك وعبرنا قنطرة الانجليز ، وسرنا صوب الجزيرة فى الشارع العـام ، ونفست صاحبتى عن السيارة وأخـذتها بالرفق ، واضطجعت بجـانبى وراحت تلعب فى (الدركسيون) بيد ... وبالأخرى طوقتنى ... ثم أخذت تناجى الغرام الماضى ، وتذكر الحب القـديم والايام السوالف ، بصوت مختنق وكلمات ناعمة ، فى نبرات متهدجة ، كأنها حشرجة الميت ، أو أنين الطفل المريض ، ولطالما كدنا نصطدم بالغادين والرائحين ، وكم كاد يدهمنا الترام ، أو تدوسنا عربات (اللورى) وصاحبتى مشغولة بما هى فيه من النجوى ، فلما وصلنا إلى الجيزة توسلت إليها . أن كفى عن السير حتى لا تكون فاجعة ، ويكون أحدنا أو كلانا من ضحاياها ... ثم انتهينا إلى النيل قبالة الجيزة فترجلنا ، ثم جلسنا على شاطىء البحر

فوق صخور الرصيف الضخمة ، ومن داخل السور الحديدى .

وكانت عزيزة قد أشجاها منظر البحر ، وأخذها سحر السماء الصافية ، فغرقت فى تاملات ، معتمدة رأسها الصغير على كتفى . ثم كانت تعيد النظر إلى البحر ، وتمعن التامل فيه آنا ، وفى السماء آونة ... وفى النهاية صوبت عينيها إلى البحر وأدامت النظر اليه ، وكأنها فى شبه إغماءة ، أو أخذتها من النوم سنة . وما أن أحسست قطرات فاترة تتساقط فى نعومة ورفق فوق عنقى حتى أدركت أن صاحبتى تبكى وأنها محروقة ، فتحركت وهززتها فانتفضت صاخبة ساخطة قائلة : حتى إغماءة فى حلم أو شبه حلم تضن بها على ؟ يالله ما أقساك ياظالمى ! وما نعى الحياة السعيدة التى يحياها الناس بل الخمائل والدهماء منهم ... فكم وددت لو تنقطع بى أسباب الدنيا كما انقطعت عنى أسباب السعادة فيها . فبالله خبرنى أيها النمر فيم العيش فى هذه الدنيا ؟ بل فى هذا السجن المظلم ، ثم إلى متى تبقى هذه الروح محبوسة فى هذا القفص ؟ وأنت أيها البحر أليس فى جوفك مثوى لمن اكتوى بنار الهجر وشواه لهيب العذاب ؟

آه تكلم أيها البحر وبئنى أليست عندك رقدة مريحة ، لهذا الذى أضنته صحراء القطيعة ... وأنهكته فيافى الآمال ... وفى النهاية رضى من الغنيمة بالاياب ؟ آه يالقسوة القدر ، ويالظلم الزمان ...

ثم اعتدلت فى جلستها ، وصوبت نظرها فى ، وأشارت بيدها الصغيرة مهددة : أنت الزمان وأنت الأيام ... ولك أعيش ، ولأجلك ومنك وفيك أحيا ... ومن أجلك أموت أيضاً . أتذكر وأنا طفلة حينما كنت تأتى بيتنا لتزور أخى الكبير ، وكنت تراني ألعب فى فناء الدار فتداعبنى ؟ أتذكر حينما كنت أتريض معك — أنا وأخى — وكنت تحبونى بقطع الحلوى (والشيكولاته) وكنت دائماً تسأل عنى ؟ ؟ أظنك نسيت هذا ... فاجبتها أن لا .

قالت : أتذكر حينما كنت تنفحنى أقلام الرصاص الملونة ، والكراسات وأدوات الكتابة ثم حينما كنت تذاكر لى دروسى كلما تقدمت للامتحان ؟

لقد كنت أشعر نحوك فى تلك الأيام بعاطفة ... ولعلها عاطفة احترام ، كنت أحسها لوالدى وإخوتي ، وكنت أنت مثلهم سواء بسواء . فلما تقدمت بى السن ، تحولت هذه العاطفة إلى ظاهرة أخرى ... نعم لقد تحولت إلى فضول فى السؤال عنك ، ثم تمادت ثم طغت ، وانقلبت شيئاً آخر هو شوق للاقائك ، وراحة إلى سماع حديثك ، ثم لقد نمت هذه العاطفة وهى أبداً فى نماء وفى اضطرام ... حتى لقد غلبتنى على أمرى واعترفت لك بالحقيقة ... ولكنك كنت أبداً قاسياً ، فسخرت منى ، واعتبرتنى طفلة نزقة طائشة ، ثم أعرتنى صمتك ،

ومنحتنى سكوتك ... آه يا أبا الهول ! ماذا تخبىء لى ؟ ... تكلم ماذا لى عندك ؟؛... فكم أنت قاس ! وكم أجرمت فى حقى !! وطالما حاولت أن أنساك أو أسلوك فما تركت بابا إلا طرقته، ولما لم أفلح دخلت الكلية ، وقلت فى نفسى عساني بالدرس والتحصيل أنساك ... شغلت نفسى بالعلم ، وكنت أبداً متفوقة ، أستوعب دروسى ، بل التهمها التهاماً ، وما كان ذلك والله إلا من أجلك وبسبب حبك ... تأمل ! فأنى كنت أضع نصب عينى أنى لن أنالك إلا بالعلم ولن أحظى بقربك إلا (بالشهادة) أحرزها ... فياللحماقة !! ويا للسخرية !؟ ويا للغباء ! ! بماذا أعترف ؟ وماذا أنكرك ؟

لقد كانت حياتي كلها لك ومن اجلك ! كانت تهزني العاطفة هزاً ، بل تحرق فؤادى بالنار حرقاً ... ولم يكن ثمة دواء ، إلا أن أتناول القرطاس والقلم ، وأكتب لك شاكية باكية ، نعم أكتب لك بحبات دموعى ، وقطرات دمى ، فاذا فرغت من الكتابة ، أحس كأنى قد أشبعت عاطفتى ، ثم أتمثل كأنى وضعت الكتاب فى صندوق البريد ، ثم أمزقه.

سادنا الصمت وعادت دموعها تتساقط ، ولكن فى غزارة وكثرة ، فتناولت منديلى أمسح بيدى دموعها ، وأربت بالأخرى على كتفيها وخديها ، وأتلطف لها حتى كفت عن البكاء ، ثم نظرت إلى نظرة معجبة ، وقالت : ولكن قل لى ... ألا تهوانى ؟

كيف لا ؟ إنى أهواك ...

أنت تكذب ، لأنك لم تبادلنى الحب . ثم إنك تزوجت .

لا .. إنى لا أكذب . أنا أحبك ، ولم أتزوج لأنك تعرفين السبب ، ففيم المغالطة ياهذه ؟

أية مغالطة ياخبيث ؟ إن التى وهبتك روحها طفلة وشابة ، ترى فى إغضابك بعدم النزول عند رأيك بل عند أمرك جناية كبرى .

ألا تذكرين ما كان يدور بيننا من حديث ؟ وما كنت أتوجه إليك به من النقد ؟ وأنت لاتصغين إلى نقدى ، لقد فهمت من هذا أنك لاتهتمين بى ، أو بالأحرى أنك لاتريدينى.

قالت : إنى كنت أفهم هذا الذى تزعم ، على أنك شغوف باساءتى . وإلى هذا وحده أحيله. على أنى أعترف لك أنى كم لاقيت فى هذا من مكروه وعنت .

قلت: كنت أعيب فيك سفورك وحبك للظهور غير محجبة، وبالله خبرينى ـ ولا يغضبك منى هذا ـ فانا الآن لاأشعر بك ، ولاأحفل بوجودك. فنظرت الى شزرا ثم قالت : كم قلت لك أن تكف عن هذه اللهجة بل هذه القسوة .

قلت لا لست إلى إيلامك أقصد ، ولكننى لاأعرف أآنسة أنت أم ولد ؟

فهذا اللباس ، وهذا شعرك ، وهـذا مظهرك جميعا، ألا ينادى أنك فتى لا فتاة ؟ ؟ سامحينى ياعزيزتى فأنا لا أحب (ال . .)

فاستلقت ضاحكة حتى كادت تغرق فى لجة البحر لولا أن عصمتها بكلتا يدى ثم قالت: الآن تذوقت ، ولكن لماذا لم تصرح بهذا من زمان ؟ إنى أرتدى هذا اللباس وأعتقد أنه خير مايلبس فأنت لاترى شيئا من جسمى باديا، ثم أنى لاأتزين كغيرى من لداتى . . . . وبعد فالأمر سهل ، وأنا أستطيع من الغد ، أن أحتجب . . . . اذا كان فى هذا مرضاتك ، ولكن أليس من الحماقة المطبقة ، أن يكون هذا الذى تثير اليه سببا فى القطيعة بيننا ؟

وأعترف لك ياعزيزى ، أنى أرى (اللباس) مسألة ثانوية ، فالانسان يستطيع أن يلبس ماشاء وأن يظهر أمام الناس كما يحب ويهوى، ولاضير عليه . ثم ماشان المظاهر اذا كانت القلوب طاهرة ، والنفوس قوية ؟ قلت: لاتغالطى فلباس الناس دليل على ذوقهم ، وآية على شعورهم وإحساسهم، ثم هو مسألة وطنية أيضا. ألا تعتقدين أن الشعب الذى يغير (زيه) مقلداً شعبا آخر قد يندمج بمرور الزمن فى هذا الذى كان أمامه المثل الأعلى؟ على أن المصيبة قد لاتقف عند هذا الحد، فقد يهضم شعب بأمره ، ويكون ذلك نتيجة لازمة للتقليد الأعمى ثم من ناحية أخرى فإن للتقاليد الموروثة عن الآباء والاجداد احترامها. ثم ماذا أقول لك. أليست الثورة نوعا من الجنون؟

قالت : ألا تزمننى غضبك إذا أفضيت إليك برأيى؟

قلت : كيف أغضب ؟ أليست المسألة هى إحقاق الحق ؟

قالت: إذن فـكل هذا الذى يحفزك انت وغيرك من الرجال أصله شيء واحد . . . . هو أنكم معشر الرجال تخشون من المرأة مزاحمتها وتنفسون عليها أن تتساوى معكم فى العلم والمعرفة فتضيع الفوارق وتندك الحواجز ، ويتساوى السادة بالعبيد .

قلت: من السادة ؟ ومن العبيد ؟ قالت أنت تحزن وقـد استأمنتك . . . قلت . ليس ثمة فارق بين المرأة وبين الرجل يا (عزيزة) ولست أحزن لشيء غير أن المرأة لاتعرف قيمتها ، ولا تعرف وظيفتها ، التى حددتها لها الطبيعة . أليست تقول الطبيعة إن المرأة أم ؟ ثم مابال المرأة تستصغر وظيفتها وهى جماع كل شيء ؟ أليست وظيفة الرجل ثانوية ؟ أعتقد أن الرجل أداة تستخدمها المرأة فى حاجاتها وأغراضها ، التى منها المحافظة على بقاء النوع الانسانى .

وبعد فالأنوثة هى من الدنيا كل شيء . وإن مافى المرأة من سحر وجاذبية ، وما إلى ذلك إنما مصدره أنها أنثى ليس غير . . . . والمرأة المترجلة تعاند الطبيعة ، وهى حقيقة بأن يرثى لها، ذلك أن هـذه الحمقاء لاترضى بما وهبتها القدرة الإلهية من عظمة فى غير عنف، ولين فى غير ضعف . وتروح تطلب غير ما خلقت له فلا تصل إلى ما تريد ، ولاتقدر أن تعود إلى ماكانت عليه .

قالت : كيف تصف المرأة بغير الضعف وأنت تطلب إليها أن تكون للرجل رقا ؟

قلت : إني لا أطلب الى المرأة ان تكون رقا وهي السيدة في بيتها . أما اذا كنت تظنين أن قيام المرأة بالواجب عليها يجعلها (رقا) أو ضعيفة ، فأني أرجو أن تفهمي أن في هذا الضعف الذى تزعمين سر عظمة المرأة وسر تحكمها فى الرجل . أليس يكفى المرأة ، أن يكون الرجل رهن إشارتها تستخدمه فى أغراضها وحاجاتها ؟ أليس فى هذا كل العظمة ؟

ثم لقد زمت شفتيها الرقيقتين الحمراوين ، ثم قالت دعنى ، فأنت تتفلسف . . . ثم أردفت أليس حبى لك هو نهاية ما يمكن أن يكون فى طبيعة المرأة من علائم الأنوثة ؟ وعرفان بالوظيفة التى تزعم ؟

قلت : أفهم هذا ، وأؤكد لك أن الرجل لا يحب فى المرأة إلا أنها أنثى .

قالت : الآن أنت تحبنى ، أنت تهوانى . . . أليس كذلك ؟ نعم أحبك وأهواك .

هل أنت متأكد ؟ متأكد جداً .

إذن انتهينا ، ودعنا من هذا كله ، ولتعلم أنى طوع بنانك ، وأنك تستطيع أن تخلق منى أى امرأة تشاء ، فأنا لك حبيبة ، أو صديقة إذا شئت . . .

وساد سكون وأشعلت سيجارة ، ولصديقتى أخرى . . . فأخذت تنفث الدخان فى الهواء ، ثم تضاحكت وقالت : ألا تعرف شبيهاً للسيجارة ؟ فسكت .

قالت : أنا أعرف لهذه السيجارة شبيهاً ، هو أنا ، فكلانا بالنار يحترق ، أما أنا فبنار الحب ، وأما هى فبنار اللذة . . . وكلانا فى سبيل الغير يضطرم . أليس كذلك ؟

فأجبتها أن نعم .

سادنا صمت وسكون — ثم فتحت حقيبة يدها ، وأخرجت قطعاً فضية ، وأخذت تلقيها فى البحر واحدة بعد أخرى . . . وراحت تزعم أنها لعبة فيها كثير من اللذة ، وفيها دعابة . . . وفيها معنى آخر هو عربون اعترافى لها بالحب ، ثم مالت وهمست فى أذنى : إنى غير مصدقة ، أنت كنت تمزح حين قلت إنك تحبنى .

لا ، لا ، لست أمزح إنى جاد ، قالت : إذن أنت لى . قلت : هو ما تقولين .

ولماذا إذن تزوجت من غيرى ؟

أنا يا (عزيزة) لم أتزوج ، وحينما كنت أذكر لك أنى تزوجت إنما كنت أداعبك .

تداعبنى ؟!! كيف تداعبنى بهذا !! ؟ أفى الجناية ؟ أفى الموت دعابة !!!

ثم أطرقت . . . وبعد قليل قالت ولأفرض حتى إنك متزوج ، ألست تحبنى أنا ؟

قلت من كل قلبى أحبك . . قالت حسبى هذا . . .

نعم أحبك (ياعزيزة) ونحن من الآن حبيبان . . . لا لا . . . بل . . . زوجان . . ؟

محمد السيد